بجاية ميناء مغاربي
(1067-1510)

د. دومنيك فاليرين — ترجمة: أ. علاوة عمارة

عندما استولى الفاتحون المسلمون على المغرب، أسسوا عاصمتهم بالقيروان التي تبعد عن البحر مسافة خمسين كلم؛ وأحدث هذا الاختيار تغييرًا أساسيًا في تنظيم الفضاء مقارنة بما كانت عليه إفريقية في العهدين الروماني أو البيزنطي إذ كان الارتكاز على الموانئ مثل قرطاجة.

القبلة الجديدة

منذ ذلك العهد، تحولت الوجهة ليس نحو الشمال، لكن نحو الشرق الذي شهد ميلاد الإسلام واحتواءه على مركز الإمبراطورية، إن هذه الوجهة جعلت هنري بيران (Henri Pirenne) يذهب إلى أن الفتح الإسلامي أثار قطيعة في وحدة العالم القديم المتوسطي: «حدث تمزق دام إلى أيامنا هذه. وعلى ضفاف بحرنا (Mare nostrum) تمتد الآن فصاعدا حضارتان مختلفتان ومتعاديتان... إن البحر الذي كان إلى غاية تلك اللحظة مركز العالم المسيحي أصبح حده الفاصل؛ لقد تم تكسير الوحدة المتوسطية». [1] غالبا ما تمّت محاربة الأطروحة البيرونية، [2] وارتبط الانتقاد خصوصا بمسؤولية الفتح الإسلامي في انقطاع المبادلات بين الشمال والجنوب، وبالتالي بالتسلسل الزمني لهذا التطور. لم تشكك الانتقادات في الفكرة المحورية التي تقول بتغيير الاتجاهات وانقطاع الاتصالات بين إفريقيا الإسلامية وأوروبا في العصر الوسيط. [3] لقد أهملت إذن السواحل، وهذا ما تشهد عليه الجغرافية السياسية والاقتصادية للمغرب في

---

[1] - H. Pirenne, Mahomet et Charlemagne, Paris, 1992, p. 111.

نشرت الطبعة الأولى لهذه النص في 1937 بعد وفاة المؤلف.

[2] - أنظر خصوصا: M. Lombard, L'Islam dans sa première grandeur, Paris, 1971, et la récente mise au point de P. Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale entre le Ve et le Xe siècles. Retour sur la problématique pirennienne», L'Occident musulman et l'Occident chrétien au Moyen .Âge, dir. M. Hammam, Rabat, 1996, p. 75-90

[3] - يعطي وجود نقاط العبور في صقلية والأندلس أو في أوروبا الشرقية أيضا تنوع للمعاينة، لكنه لا يرفضه أساسا.

Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale», art. cité, p. 82 ; E. Ashtor, «Quelques observations d'un orientaliste sur la thèse de Pirenne», JESHO, 13, 1970, p. 173-174, rééd. Studies in the Levantine Trade in the Middle Ages, Londres, 1978; Cl. Cahn, «Quelques problèmes concernant l'expansion économique musulmane au haut Moyen-Âge», L'Occidente e l'Islam nell'Alto Medio Evo, Spolète,1965 (Settimane di studio del Centro Italiano di Studi sull'Alto Medio Evo, XII), I, p. 423-424.

القرون الإسلامية الأولى، وأيضا جغرافية أوروبا الجنوبية في نفس الفترة. بعد القيروان، أصبحت طبعا مدن أخرى عواصم لسلالات حاكمة جديدة مستقلة أو ببساطة حواضر جهوية: طبنة والمسيلة وأشير وقلعة بني حماد وتيهرت أو أيضا سجلماسة؛ وتقع هذه المدن على خط شرق- غرب الذي ينطلق من القيروان ويمتد على الجانب الجنوبي للتل على اتصال بالسهوب والصحراء.[4]

عندما وصف الجغرافي الإدريسي المغرب في منتصف القرن الثاني عشر، أشار دائما إلى هذه المدن القديمة، لكنه أكد أيضا على عظمة وثراء الموانئ كالمهدية وتونس وبجاية والجزائر أو وهران؛ وبدأت تظهر في نفس الفترة وثائق الأرشيف الأوروبية الأولى التي تشهد على تجارة نشطة بين جنوة والعالم الإسلامي. إنها ثورة تجارية حقيقية تصنع في أوروبا، خصوصا في موانئ إيطاليا، وبعد ذلك بقليل في موانئ بروفانسيا وشبه الجزيرة الإيبيرية.[5]

نمت تيارات المبادلات الشمالية- الجنوبية بطريقة مشهودة، مدمجة جهتين كانتا إلى حينها منفصلتين بعضهما عن بعض في نفس الفضاء الاقتصادي المتسع الأبعاد: أوروبا وإفريقيا وآسيا.[6]

مدن حاضرة البحر

حصل بين هاتين الحقبتين تحول عميق ودائم لتنظيم الفضاء المغاربي، وتحولت مراكز الثقل تدريجيا نحو البحر وشهد الساحل نشاطا جديدا؛ وجرى هذا التغيير أيضا في الشرق تحت تأثير الأغالبة والفاطميين (الذين أسسوا المهدية، أول عاصمة مسلمة تقع على الساحل)، وأيضا في الغرب والوسط حيث شهدنا نهضة الشواطئ الإيبرية وبناء الأندلسيين لموانئ على طول الساحل الإفريقي (وهران وتنس والجزائر وطبرقة).[7] في القرن التاسع، وخصوصا في القرن العاشر، بدأ المغرب إذن في التوجه نحو البحر، وتأكد هذا التطور في القرن الحادي عشر ثم في القرن الثاني عشر مع تطور ميناءين كبيرين في المغـــرب

---

[4] - S. Dahmani, «Essai d'établissement d'une carte des voies de circulation dans l'est du Maghrib central du IXe au XIIe siècle», Histoire et archéologie de l'Afrique du Nord. Actes du IIIe colloque international, réunis dans le cadre du 110e Congrès national des sociétés savantes (Montpellier, 1-5 avril 1985), Paris, 1986, p. 338.

يحدد اليعقوبي الذهاب من القيروان إلى الأندلس في زمنه أي القرن التاسع، بأنه يجب إما الذهاب إلى غاية تاهرت ثم الركوب من تنس أو ركوب البحر مباشرة من تونس.

Ibid., p. 344.

أنظر أيضا: M. Chapoutot-Remadi, «Fronte saharino e fronte mediterraneo», Hinterland, 3e année, n° .15-16, 1980, p. 12-14

[5]- R. S. Lopez, La Révolution commerciale dans l'Europe médiévale, Paris, 1974.

[6]- J. L. Abu-Laughed, Before European Hegemony. The World System AD 1250-1350, Oxford, 1989, p. 3.

[7]- Guichard, «Les pays de la Méditerranée occidentale», art. cité, p. 89.

الشرقي هما بجاية وتونس. لكن على العكس في هذه الفترة، فقد المسلمون التحكم في قسم كبير من البحر المتوسط.[8]

يحدد هذا التوجه الساحلي أو المتوسطي «méditerranéisation»[9] للفضاء المغاربي –الذي بدأ في القرن التاسع والذي ترسّخ بداية من القرنين الحادي عشر والثاني عشر وخصوصا طوال العصر الوسيط المتأخر– الجغرافية السياسية والاقتصادية لقسم كبير من الجهة إلى غاية أيامنا.[10] ويدعونا[11] لمحاولة فهم الظروف التي سمحت ببروز وتطور هذه الموانئ، وهذا ما يجبر على إعادة تفحص مصطلحات النقاش القديم، أي الانحطاط المفترض للمغرب في نهاية العصر الوسيط.

انحسار المد الحضاري

نظر المعاصرون والمؤلفون المغاربة الأواخر للقرن الحادي عشر على أنه فترة قطيعة عميقة.[12] لقد فتحت حسب رأيهم عصر الانحطاط والتراجع، خصوصا مقارنة مع العالم المسيحي. لقد وضع المؤرخون المحدثون هذا الموضوع في مركز تفكيرهم حول ماضي الجهة واعتقدوا أنهم وجدوا مصدر الوضعية غير المتكافئة مع العالم الغربي التي نعيشها اليوم. ففي 1970، تساءل عبدالله العروي في الصفحات الأولى من مؤلفه «تاريخ المغرب» كما يلي: «ما هو عمق ونشأة وتشريح الموضوع الذي سيكون في لحظة ما قد تأخر ويجب استدراكه؟».[13] مؤخرا، طرح مؤرخ الحقبة الوسيطة المثقف التونسي محمد الطالبي نفس المشكل: «في نظري المسألة الأساسية بالنسبة إلينا هي التالية: لماذا في لحظة تاريخية معينة تم تحطيم اندفاع حضارتنا؟ يلزمنا وقت ومجهودات للكشف أننا انطلقنا كالسهم وكل ما حدث في لحظة ما أن

---

[8]- Chapotât-Remédie, «Fronte saharino», art. cité, p. 10, 18.

[9]- أنشأ جون- كلود جارسان هذه العبارة لوصف وضعية الإمبراطورية المملوكية بداية من نهاية القرن الرابع عشر.
J. Cl. Garcin, «La “Méditerranéisation” de l’empire mameluk sous les sultans Bah rides», Rivista degli Studi Orientali, 48, 1973-74, p. 109-116.

[10]- واضعا حصيلة لوضعية السلطنة العبد الوادية في عصره، كتب ابن خلدون: «العرب هم أسياد البسائط ومعظم المدن، لا تمتد سلطة العبد الواديين إلى الولايات البعيدة عن مركز المملكة ولا تتعدى تقريبا حدود المجال البحري الذي امتلكوه». البربر، 3، ص 472- 473.

[11]- تختلف الوضعية في المغرب الأقصى، لأن العواصم السياسية بقيت في داخل الأراضي. في حين أن الواجهة البحرية هي ضيقة أكثر ومصير سبتة يوضح أن الجهة لم تبق بعيدة عن التطور العام. في المقابل، الصورة مغايرة في المشرق الإسلامي أين بقيت المراكز الكبرى للحكم (القاهرة ودمشق في المقدمة) بعيدة عن البحر.

[12]- J. Berque, «Les capitales de l’islam maghrébin vues par Ibn Khaldûn et les deux Maqqari», Annales islamologiques, 8, 1969, p. 79.

[13]- A. La roui, L’Histoire du Maghreb. Un essai de synthèse, Paris, 1970, rééd. Casablanca, 1995, p. 11.

الحافز قد تكسّر. لماذا توقفت حضارتنا من كونها قوة حتى أصبحت معرقلة؟». [14]

إن هذه المسألة ليست بالجديدة [15] وستستمر دون شك لمدة طويلة في ذهن مؤرخ المغرب وبلدان الإسلام بصفة عامة. [16] إن المستشرقين الذين غالبا ما كانوا أدباء اهتموا بالحقبة «الكلاسيكية»، معتبرين أن الإنتاج الفكري بعد القرن الحادي عشر يتلخّص في جمع اجتهادي. [17] لكن فكرة الكلاسيكية وخصوصا الانحطاط التي تتضمنها تتطلب نقاشا. [18]

لقد رأى المؤلفون العرب في نهاية العصر الوسيط هذا الانحطاط إشارة لأزمة عميقة؛ وحلّلوا وضعيتهم كتراجع مقارنة مع الماضي الذي اعتبروه مجيدا. بالنسبة للمؤرخين المعاصرين (منذ القرن التاسع عشر خصوصا)، ينظر إلى هذه الوضعية كتأخر مقارنة بالغرب في فترة يسيطر هذا الأخير عليها سياسيا وعسكريا واقتصاديا. لكن يجب التمييز بين «التراجع» و«التأخر» أو «التعديل». [19]

---

[14] - M. Talbi, Plaidoyer pour un islam moderne, Tunis-Paris, 1998, p. 41.

ظهرت النسخة العربية لهذا النص في 1992 بتونس تحت عنوان عيال الله.

[15] - بافتتاحه للملتقى في 1956 الذي كرّس لمسألة الزوال في العالم الإسلامي، ذكّر روبار برونشفيك أن منتسكيو (Montesquieu)

كان قد فكّر في المسألة مفسّرا «انحطاط» الإسلام «بالاستبداد» الذي كان مسيطرا.

R. Brunschvicg, «Le problème de la décadence», Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du symposium international d'histoire et de civilisation musulmane, Bordeaux, 25-29 juin 1956, dir. R. Brauschig et G. E. von Grüne bäum, Paris, 1977, p. 31.

[16] - «أتخيل أن لا أحد بيننا، لم يطرح عليه سؤال محتوم من غير متخصص في الاسلاميات: «ما إذن ينسب انحطاط الشعوب المسلمة في نهاية العصر الوسيط أو العصور الحديثة؟ لقد شعرت من جهتي في عدد من المرات بالحيرة القصوى أمام هذا المشكل الكبير. دون شك هل من المستحيل تناوله بكمية من الفرضيات فقط أو عكس ذلك بالاضطراب. لكن الإقرار بعدم القدرة هو تألم نوع ما ومثير للقلق». Ibid., p. 29.

[17] - Ibid., p. 34.

في سلسلة «الحضارات الكبرى»، الكتاب المخصص للإسلام والذي عهد به إلى دمنيك (Dominique) وجنين سوردال (Janine Sourdel) (La Civilisation de l'Islam classique (Paris, 1968)، لم يذهب إلى ما بعد القرن الحادي عشر.

[18] - كان موضوع ملتقى بوردو في 1956، Classicisme et déclin culturel, op. cit., passim.. بعودته في 1996 لمساهمة كلود كاهن في هذا الملتقى، أشار محمد أركون إلى حمل هذه الأعمال بصمات الرؤية التقليدية لإسلام متطرف لا يمكن تقبلها اليوم.

M. Arkoun, «Transgresser, déplacer, dépasser», Arabica, 43/1, 1996, p. 39-40.

[19] - Brunschvig, «Le problème de la décadence», art. cité, p. 41.

«يبدو لي أن مبدأ (الفارق الزمني) أكثر خصوبة من مبدأ الانحطاط، لأنه يحتم تفحص مقارن للقوى وللميكانيزمات وللأنظمة الاقتصادية والسياسية والقانونية التي تتصادم حينها في حيز جغرافي أين سمح الفعل الإسلامي بالتحرر والإبداع والتطور التي تتابعت، وتعززت في السياق الغربي فقط.»

Arkoun, «Transgresser», art. cité, p. 41.

إن المقارنة بين تطوّر المغرب وتطور أوروبا بعد القرن الحادي عشر هي مجازفة قد تكون مضللة. إن التطوّر السّريع للضفة الشمالية لا يعني بالضرورة تراجعًا فعليًا للضفة الجنوبية؛ وأيضا، يجب الحذر عند الحديث عن تراجع المغرب مقارنة بالنمو العام الذي عرفه البحر المتوسط في هذا العصر. «في هذا الصدد، لاحظ كلود كاهن (**Claude Cohen**) أن المشكل الحقيقي هو تطوّر الغرب أكبر من انحطاط الشرق». [20] إن السؤال الذي يطرحه هذا النزول هو التالي: لماذا لم يمس تقدّم الغرب المستمر العالم الإسلامي، أو على الأقلّ لم يمسه بكيفية متكافئة؟ [21]

ولهذا السبب فإنّه من الضروري العودة إلى النصف الثاني من العصر الوسيط المغاربي بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر؛ فالجهة عرفت طبعا في هذه الفترة أزمة ترجمتها التبدلات العميقة. لكن لم يتجمد التاريخ بعد الحقبة «الكلاسيكية»، [22] ففي خلال القرون الموالية –بالعكس- هناك حضور للإنجازات السياسية الكبرى التي هي علامات للازدهار. من الضروري إذن الأخذ بعين الاعتبار مشكل الزمن الطويل للتمييز بين فترات الأزمة وفترات الازدهار. إن الإجابة عن هذا السؤال تتطلب في أول الأمر تحديد الحقبة الزمنية. إن قطيعة القرن الحادي عشر ربما إذا ما كانت سديدة في الميدان السياسي أو الثقافي لا يمكن أن تقبل دون نقاش.

إن البحث في الاشتمال على مجموع جد واسع حول الحقبة الطويلة يؤدي إلى المجازفة بالخلط، لأن السياقات تتنوع بعمق من مكان إلى آخر. تتمة لكلود كاهن، يشير أغلب المؤرخين اليوم إلى التنوع الكبير في العالم الإسلامي. [23] في المغرب لوحده، تختلف حالات تونس وبجاية والجزائر أو سبتة، فقد تطورت هذه المدن بإيقاعات مميزة في سياقات وحسب منطقها الخاص بها.

---

[20] - Cl. Cohen, «Quelques mots sur le déclin commercial du monde musulman à la fin du Moyen Âge», Studies in the Economic History of the Middle East, dir. M. A. Cook, Londres, 1967, rééd. Les Peuples musulmans dans l'histoire médiévale, Damas, 1977, p. 360.

[21] - Ibid.

[22] - إن الأطروحة التقليدية للاستشراق الاستعماري التي عبّر عنها ج. هـ. بوسكي (G. H. Bousquet) خلال ملتقى بوردو (Bordeaux): «نقطة البداية هي هذه: خلال قرون، بقي الإسلام جامدا تقريبا في مقابل أوروبا التي تطورت بسرعة رغم أن البلدان المسلمة تجاوزت حضارة أوروبا الغربية في العصر الوسيط الأعلى.»

G. H. Bousquet, «Dans quelle mesure l'enseignement dogmatique a-t-il pu entraver l'évolution des institutions économiques et sociales de l'Islam?», Classicisme et déclin culturel, op. cit., p. 185.

[23] - في هذا الصدد، إن العنوان الذي تمّ اختياره للخلاصة الأخيرة التي ظهرت في سلسلة Nouvelle Clio هو معبّر:

États, sociétés et cultures du monde musulman médiéval, Xe-XVe siècle, dir. J. Cl. Garcin, Paris, 3 vol., 1995-2000.

بجاية النموذج

تظهر بجاية مرصدا جيدا لوصف هذه المتغيرات وفهم ميكانيزماتها. دون أن تكون عاصمة سياسية (إلا في فترات مختصرة)، كانت هذه المدينة «التي لم تكن ذات نوعية»[24] خلال عدة قرون واحدة من الحواضر الجهوية لإفريقيا الشمالية وواحدة من الموانئ الأكثر نشاطا منذ بنائها في 460/1067، لم تفقد مكانتها إلا مع الغزو الإسباني في 1510. يحدد هذان التاريخان فترة واسعة بكفاية لتتبع تطور المدينة في سياقها المغاربي والمتوسطي في الوقت ذاته. إن كل دراسة تعتمد على الأعمال المتعددة والمتينة. بالإضافة إلى المؤلفات التي أصبحت قديمة حول إفريقية الوسيطة للهادي روجي إدريس[25] وخصوصا روبار برونشفيك (Robert Brunschvicg)،[26] انضمت مؤخرا المنوغرافية الغنية لمحمد الصالح بعيزق المكرّسة للمدينة تحت حكم الحفصيين.[27] من جهة أخرى، إن تاريخ التجارة المتوسطية والعلاقات بين أوروبا والمغرب هي معروفة بفضل الأعمال التي أنجزت حول موانئ أروبا الجنوبية الكبرى.[28]

فضلا عن مميزاتها الخاصة بها، فإن بجاية هي في قلب المشاكل التي تطرحها القرون الأخيرة للعصر الوسيط المغاربي وتسمح بإعادة التفكير في الأطروحتين اللتين تواجهتا لمعرفة صعوبات المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

---

[24]- هكذا عرّف جون – كلود جارسان (Jean-Claude Garcin) –الذي استلهم من كتاب روبار مزيل (Robert Musil) – مدينة القوص في مصر.

J Cl. Garcin, Un centre musulman de Haute-Égypte médiévale: Qûs, Le Caire, 1976, p. 569.

[25]- H. R. Idris, La Berbérie orientale sous les Zirides, Xe-XIIe siècle, Paris, 1962.

[26]- R. Brunschvig, La Berbérie orientale sous les Hafsides, des origines au XVe siècle, Paris, 1940-1947.

[27]- م. ص. بعيزق، بجاية في العهد الحفصي: دراسة اقتصادية واجتماعية، رسالة دكتوراه، جامعة تونس الأولى، تحت إشراف م. سبوتو- رمادي، 1995. في المقابل، ليس ما يؤخذ من العدد الخاص لمجلة الأصالة المكرّس لتاريخ بجاية والذي لا يتعدى تقريبا إطار الاحتفال بالعظمة الماضية للمدينة. بجاية عبر العصور، الأصالة، 19. 1974. نفس الشيء لعمل إزابال كمولي Isabelle Comolli, Histoire de la ville de Bougie du VIe siècle av. J. C. au XIIe siècle, Montpellier, 1987. وأخيرا، كتاب مولود قايد (L'Histoire de Bejaïa et de sa région depuis l'Antiquité jusqu'à 1954, Alger, 1976) يوفر خصوصا رواية للأحداث.

[28]- إذا ما كانت العلاقات مع المشرق قد تم تفضيلها في الغالب، تمّ أيضا إجراء عدة دراسات حول حوض المتوسط الغربي. إن البيبلوغرافيا هي أكثر وفرة من تاريخ المغرب. أنظر خصوصا أعمال شارل- إيمانويل ديفور (Charles-Emmanuel Dufourcq)، وماريا دولوريس لوبيز بيريز (María Dolores López Pérez)، وبيار مكار (Pierre Macaire) حول شبه الجزيرة الإيبيرية، وإدوار براتيي (Édouard Baratier) ورجين بارنو (Régine Pernoud) حول مرسيليا ولورا بليتو (Laura Balletto) ومكية بن ساسي وبرنار دومار (Bernard Doumerc) وفليب جوردان (Philippe Gourdin) وجورج جهال (Georges Jehel) حول إيطاليا.

في الواقع، تمّ تفسير أزمة المغرب منذ زمن طويل أساسا باضطرابات أثارتها في منتصف القرن الحادي عشر هجرة القبائل العربية الوافدة من حوض النيل: بني هلال وبني سليم. إنها أطروحة «الكارثة الهلالية» التي نقلت دون انقطاع إلى غاية سنوات الخمسينات. كتب شارل- أندري جوليان (Charles-André Julien) - الذي حوصل الأعمال التي أنجزت خلال القرن الذي سبقه في كتابه «تاريخ إفريقيا الشمالية» الصادر في 1931- كما يلي: «بكل تأكيد، إن الغزوة الهلالية هي الحدث الأكثر أهمية في كل العصر الوسيط الأوروبي. إنها أكثر من الفتح الإسلامي وهي التي حوّلت المغرب لقرون.[29]

«تندرج هذه الأطروحة بالنسبة لشارل – أندري جوليان نفسه أو على الأقل لكثير من الذين كتبوا قبله، في إطار مشروع إعطاء شرعية للاستعمار الذي قدّم على أساس العودة إلى الحالة العادية: حسب رأيهم المغرب مرتبط - بحكم الميل الطبيعي- بأوروبا.[30] كان المغرب منذ الإمبراطورية الرومانية جزءا من الحضارة الغربية وتطور المسيحية (خصوصا مع القديس أوغسطين) يكون قد أنهى توحيد الضفتين. في نظرهم، لم يحدث الفتح العربي انقلابا عميقا. بالعكس، «بعد دخول البدو مسرح الأحداث (في القرن الحادي عشر) تم تدريجيا في القرنين المواليين ضرب المغرب الأوسط الواقع بين تونس وتلمسان بالشلل والموت».[31] ويكون هذا الحادث بذلك قد فتح قوسا كبيرا تمّ إعادة غلقه بفضل فعل فرنسا التحضيري.[32] إن تفسير الانحطاط يدخل في الحسبان عوامل داخلية في العالم الإسلامي وأيضا خارجية عن المغرب، وتستند خصوصا الى أحكام عنصرية ومعنوية، تشير أساسا إلى الطبيعة المخربة للعرب البدو.

يضع المخطط التفسيري الثاني في المقدمة تطور التجارة الأوروبية في الموانئ المغاربية حيث تباينت تقديرات تأثيره على ازدهار المغرب. فسّرت الأعمال التي تعود إلى الفترة الاستعمارية هذا التطور على أساس أنه مؤشر سابق للتوسع السياسي لأوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين. إن أي أفق يلمس في العمل المتقدم للويس دو ماس لاتري (Louis de Mas-Latrie) حول التجارة الأوروبية في إفريقيا الشمالية الوسيطة،[33] الذي أنهى مقدمة الكتاب بهذه الكلمات: «كم كان بإمكاني أن أهنئ نفسي إذا

---

[29] - Ch. A. Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931, nouvelle éd. revue (avec la collaboration de Chr. Courtois et R. Le Tourneau), 1951, rééd. 1994, p. 414.

[30] - أنظر العنوان المعبّر للكتاب الذي نشره الجنرال دو بريمو بباريس في 1850.

Le Général de Brémond, Berbères et Arabes. La Berbérie est un pays européen.

[31]- É. F. Gautier, Les Siècles obscurs du Maghreb, Paris, 1927, p. 405.

[32] - « تحت فعل فرنسا، سينشط هذا التحجر الضخم ويولد بحالة جديدة».

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XIe au XIVe siècle, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique du département de Constantine, 47, 1913, p. 18.

[33] - L. de Mas-Latrie, Traités de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen-Âge, Paris, 1866.

استطاعت هذه الأعمال التي تمّت معرفتها من بعض الأهالي أن تحثهم على الدخول بودية إلى صراط التهدئة والوفاق الوطني نحو المصير المشترك الذي ربما يحفظه المستقبل للجزائر والذي يدعوهم إليه في هذه اللحظة الكلام الجميل واللطيف الذي يمتلك سره الإمبراطور.»[34]

الأمر نفسه تكررعندما حرّر روبارتو سباتينو لوبيز (Roberto Sabatino Lopez) عمله حول الجنويين في إفريقيا الغربية في العصر الوسيط، وهذا في سياق التوسع الاستعماري لإيطاليا الفاشية حيث وضع هذه الفترة بين أعمال سبيون إميليا (Scipion Émilien) الباهرة والمستقبل الجديد لإيطاليا في إفريقيا.[35] بالنسبة لهؤلاء المؤرخين، خلق انفتاح الموانئ المغاربية على التجارة الأوروبية ظروف ازدهار جديد،[36] لكنها تقتصر على الحاشية الساحلية لأن الداخل بقي مصابا بالشلل.[37] هؤلاء المؤلفين - الذين هم ليسوا باختصاصيين في تاريخ التجارة الأوروبية وأيضا في العالم الإسلامي- لم يهتموا تقريبا بتفحص آثار هذا النشاط التجاري في البلاد.

الاستعمار الجديد

أبرز أيضا عبدالله العروي الدور الحاسم للمنطقة في هذا التوسع التجاري، لكنه حمل حكما مختلفا جدا. يندرج تفكيره في سياق إدانة المظاهر الجديدة للسيطرة الغربية على ما نسميه العالم الثالث. يترجم هذا «الاستعمار الجديد استعلاء ليس سياسيا فقط، ولكن اقتصاديا قبل كل شيء، والعناية

---

[34]- Ibid., préface, p. XXVII (datée du 10 mai 1865).

أنظر أيضا حكم: بواسوناد P. Boissonnade, « Relations commerciales de la France méridionale avec l'Afrique du Nord ou Maghreb du XIIe au XVe siècle, étude d'histoire économique », Bulletin de la société de géographie, 1929, p. 1 «إن الجمهوريات البحرية الفرنسية في الفترة الجميلة من العصر الوسيط كانت النذير الحقيقي للزمن الذي فتح خلال القرن التاسع عشر والذي جعل من إفريقيا الشمالية فرنسا جديدة، كامتداد اقتصادي وميدان تجاري للوطن القديم.»

[35]- «إذا كان الجنود والعمال الإيطاليون فتحوا لحضارتنا مستقبلا جديداً في إفريقيا، فإن ذاكرة المتقدمين من كل نوع وفي كل عصر في الماضي، اجتازوا الجهات الجد بعيدة، وتدفّقوا في روح كل واحد واكتسبوا فعليا حق الأسبقية في كل التاريخ».

R. S. Lopez, «I Genovesi in Africa Occidentale nel Medio Evo», Studi sull'economia genovese nel Medio Evo, I, Turin, 1936, p. 3.

[36]- إن انفتاح الدول المغاربية على التجارة هي بالنسبة لفرنو برودال «الحدث الكبير في حياة المغرب – مع ما يفكر فيه التاريخ العام- والذي يفيض كثيرا بفعل انعكاساته إلى أبعد من حدوده».

F. Braudel, «Monnaies et civilisation: de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen», Annales ESC, 1, 1946, p. 11.

[37]- «تكبر هذه المدن دون معيار مشترك مع البلدان المحيطة بها. وهي نتاج الاقتصاد العالمي وهذه هشاشتها السرية، فهي ليست أقل ازدهارا من هذه اللحظة». Ibid., p. 12

بمبادلات تجارية غير متكافئة بين الشمال والجنوب. بإشارته إلى دور التوسع التجاري الأوروبي في التطور الاقتصادي للمغرب، سجّل عبدالله العروي خصوصا آثاره المدمرة: «إن هذه التجارة التي نعجب باعتبارها رمزا وشرطا للازدهار كانت في تاريخ المغرب مرتبطة بضعف السلطة السياسية.[38] «دون إهمال الاضطرابات التي ولّدتها الهجرات الهلالية، ينقل إذن الأزمة نحو منتصف القرن الرابع عشر.[39]

الأمر الذي دفع محفوظ قداش في تاريخ «الجزائر الوسيطة» الصادر في 1992 إلى أبعد من هذا التفكير مؤكدا على أن المغرب تكبّد «هجمة التجار الأوروبيين التجارية التي واكبتها في الغالب هجمة عسكرية من الدول المسيحية.[40]

«في النهاية، إن هذا التحليل غير بعيد عن تحليل المؤرخين الاستعماريين. لقد نظر إلى التطور الملاحي والتجاري للمدن الأوروبية كعنصر من التوسع الأوروبي نحو المغرب وبذلك أعلن أو حضّر توسع القرن التاسع عشر. إنّ الفارق بين هاتين المقاربتين يكمن فقط في الحكم السياسي (أو المعنوي) الذي وضع على الظاهرة: خير بالنسبة للبعض وشر بالنسبة للآخرين.

تدخل الصورتان المفسّرتان أساسا عاملين خارجيين عن العالم المغاربي.[41] لقد بحثت الكتابة التاريخية الجزائرية في سنوات الستينات والسبعينات عن عكس ذلك بإظهار المنطق الداخلي لتطور «الأمة».[42] ففي 1970، كتب محي الدين جندر في الفصل الأول من كتابه «مقدمة لتاريخ الجزائر»

---

[38]- Laroui, L'Histoire du Maghreb, op. cit., p. 174.

يرفض عبدالله العروي فكرة المصير المشترك بين المغرب وأوروبا كما طالب بها المؤرخون الاستعماريون. «إلى هذا الطفل الأبدي الذي هو دائما عفريت، نذكّر بأنه يجب الاختيار مرة واحدة وأخيرة، الخيار الجيد الذي هو خيار الجماعة المتوسطية». Ibid., p. 95.

[39]- Ibid., p. 204.

[40]- M. Kaddache, L'Algérie médiévale, Alger, 1992, p. 165.

في القرن الخامس عشر، ازدادت هذه «الهجمة» حسب نظره في سياق النزاع ضد الإسلام تحت سلطة البابا: «إن قبض التجار الأوروبيين على المتاجرة المتوسطية تطلّب سياسة هجومية ضد المدن البحرية المغاربية، والذي هدف إلى خنق هذه الأخيرة ومنع كل تجارة منتظمة مغاربية». Ibid., p. 179.

[41]- يخلخل عبدالله العروي هذه الفكرة حيث دعا إلى الأخذ بعين الاعتبار العوامل الخارجية، لكن بتفسيرها حسب الحالة الداخلية للجهة.

Laroui, L'Histoire du Maghreb, op. cit., p. 206.

[42]- أنظر:

D. Valérian, «L'expansion européenne médiévale vue par l'historiographie maghrébine contemporaine» (communication dans le cadre du groupe Dirasat au WOCMES de Mayence, septembre 2002, à paraître au CERES, Tunis)

والمعنون بـ(نحو التاريخ الوطني): «إنّ الماضي ينادي بإدماجه، إدماجه بطريقتنا، لأنني توصلت إلى قناعة عميقة بأن تاريخنا الوطني – رغم أعمال المؤرخين الأوروبيين الكثيرة كان دائما أرضية خصبة وكان يجب بالنسبة إلينا نحن، إعادة التفكير في العناصر المختلفة لماضي وجودنا».[43] إن الإطار الذي تم اختياره في هذا التفكير –الأمة الجزائرية- كان أقل تكيفا مع التاريخ الوسيط. بعودته إلى نصه في نهاية سنوات الثمانينات، أضاف له محي الدين جندر فصلا جديدا كتمهيد «ضرورة تفكير جديد في التاريخ الوطني» حيث كتب خصوصا: «انتهى فهم الأمة على أنها مشابهة لنفسها وأن السيطرة الاستعمارية لوحدها هي التي أخفت وجودها».[44]

إن قصور هذه التفسيرات يظهر أن تاريخ بجاية لا يمكن فهمه إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار العوامل الخارجية والداخلية للتطور. يجب إذن وضع أنفسنا في سلم مختلف ورؤية دور المدينة في المغرب وأيضا في البحر المتوسط.[45] لا يمكن فهم نشاط الميناء إلا إذا تمّ ربطه ببلاده الخلفية من جهة وبمجمل الاقتصاد المتوسطي من جهة ثانية.[46]

يجعل هذا المنطلق ضروريا المقارنة بين مختلف العوالم وبناها الاقتصادية والسياسية أو الاجتماعية. إن الهدف ليس إصدار حكم مهما يكن لكن فهم أسباب التطورات المختلفة. إنّ هذا العمل غير محصن من المجازفة. لقد أشار كلود كاهن خلال ملتقى بوردو في 1956 إلى ضرورة انطلاق دراسة مقارنة ليس من المفاهيم المجردة والمنغلقة ولكن من تحاليل مجسدة لبنى مختلف المجتمعات أو الحضارات، وهذا ما يفترض بنا أن نقوم به في هذا العمل فيما يخص بجاية.[47]

---

[43]- M. Djender, Introduction à l'histoire de l'Algérie, Alger, 1970, nouvelle édition augmentée, Alger, 1991, p. 42.

[44]- Ibid., p. 16-17.

[45]- إن نشاط الميناء هو انعكاس التطورات الخاصة بالمدينة وبالمجتمع الحضري وتطورات المقاطعة (البلاد الخلفية القريبة أو البعيدة) للدولة (الحمادية، والموحدية والحفصية) ومجمل المغرب أو مجمل العالم الإسلامي.

[46]- أنظر ملاحظات كلود كاهن Claude Cahen, «Quelques mots sur le déclin commercial», art. cité, p. 359-360. «بالتعريف، لا يمكن دراسة اقتصاد تجاري في نفس الميدان المغلق دون الرجوع إلى ما يحيط به. فيما يتعلق بالمجال المسلم، نلاحظ من جهة أن الظواهر التي ترصد له هي مشتركة مع مجتمعات أخرى ومن جهة ثانية هي ليست نتاج التطور الداخلي فقط، لكن أيضا رد فعل يعكس التطورات المحيطة بها».

[47]- Claude Cahen, intervention à la suite de la communication de Robert Brunschvig, «Le problème de la décadence», cité, p. 47.

بجاية من خلال الوثائق

يصطدم هذا المقتضى بمشكل المصادر ويفرض الإتيان بتوضيح مزدوج للمادة التوثيقية العربية واللاتينية. بالنسبة لبجاية، هذه المصادر كافية وذات طبيعة متنوعة جدا، وترفع لنا الستار خصوصا عن مدينتين مختلفتين، الأولى مرساة بعمق في المغرب والثانية منفتحة بكثرة على البحر المتوسط.

تظهر المصادر العربية المشكلة أساسا من نصوص ذات طابع أدبي مدينة متجهة نحو البر. كحاضرة جهوية، شاركت بجاية في النزاعات السياسية التي ضربت بغليانها إفريقية وأكثر من ذلك مجمل المغرب. كما تحكمت في جهة واسعة متميزة بغليان حركات القبائل وقوى أخرى هامشية. اعتنى البجائيون بالعلاقات التجارية مع جهات أخرى في العالم الإسلامي أو مع إفريقيا العميقة، ولكن العلاقات مع مسيحيي الضفة الأخرى هي غائبة تقريبا في هذه النصوص الأدبية.وعندما يشار إليهم، فلا يذكر الاّ طبيعة النزاع بين عالمين غير منسجمين، وهنا إخفاء للعلاقات العادية مع الكفار.

عكس ذلك، لا تظهر المصادر الأوروبية –التي هي أساسا وثائق أرشيف- بجاية إلا من خلال مينائها المنفتح بكثرة على البحر. وتسمح الوثائق التجارية برسم صورة مدينة نشطة، تبرم علاقات كثيفة ومنتظمة مع بقية الحوض المتوسطي من خلال أعمال التجار الإيطاليين والبروفانسيين أو الكتالانيين وتظهر فترات ازدهار تجاري وأوقات الفتور أو أزمة المبادلات. وتخبرنا الأرشيفات العمومية وبعض كتب التاريخ عن الروابط السياسية المبرمة مع الحفصيين. وتشير المعاهدات إلى مراحل هذا التعايش المشترك حتى وإن كانت الوثائق تشير خصوصا إلى النزاعات. لكن على غرار النصوص العربية التي لا تهتم بالبحر أو بالمسيحيين، فإن الوثائق الأوروبية لا تلمح إلى ما يجري خارج الميناء وإلى سكان هذه الأراضي رغم الالتقاء بهم.

وبالتالي فمنذ ذلك الحين يظهر أن الاستعمال المتقاطع لمختلف أنواع هذه المصادر صعب. إن عدم التساوي هو توثيقي قبل كل شيء، فقد ترك تاريخ بجاية على العكس أكبر أثر في أوروبا وليس في المغرب فحسب. إن ندرة المعلومات حول النشاط الملاحي البجائي يجب أن يفسّر بحذر. إنّ مقابلة المصادر العربية مع الأوروبية يسمح جيدا باستخراج فترات الازدهار والأزمة والبحث في أسبابها. كما تشير أيضا –في السياق الاقتصادي والسياسي والاجتماعي البجائي والجهوي- إلى أي العوامل التي بإمكانها توضيح ما يظهر في لحظة ما كـ«تأخر» مقارنة بأوروبا.

ميناء مغاربي ذو أهمية أولى، هنا تندرج بجاية كاملة في سياق نشاط السواحل المتوسطية انطلاقا من القرن الحادي عشر، ولكن أيضا في تغيرات الموازين الجهوية.

تعزى هذه المكانة في بادئ الأمر إلى الثروات التي تجلبها من بلادها الخلفية. يجب إذن الانطلاق من منطقة بجاية وإعادة النظر في ورقاتها الرابحة وضعفها البنائي وتحديد فترات الأزمات الداخلية. ويتطلب هذا تقدير أهمية المدينة واشعاعها في المغرب على الصعيد الاقتصادي وأيضا على الصعيد السياسي مع الإشارة إلى التطورات خلال الفترة المعتبرة. وتشهد مبادلات المنتجات وما ينجم عنها بازدهار المدينة وجهتها وأيضا حدود اقتصادها. وأخيرا، إن القرصنة التي نمت خصوصا بداية من القرن الرابع عشر هي إشارة لأزمة وسبب للغنى.

اندمجت المدينة إذن في فضاء واسع، وارتبط ميناؤها على وجه الخصوص بالبحر؛ لكن إذا كان هذا الأخير هو مصدر ازدهار بجاية فإنها حملت أيضا ارتباطا أكبر على الصعيد التجاري، فقد البجائيون المبادرة لصالح المتعاملين الاقتصاديين الأوروبيين، وهذا ما جعل الاقتصاد الحضري حساسا بصفة خاصة لتطور الوضعية في البحر المتوسط. إنها الظروف المزدوجة المغاربية والمتوسطية الوحيدة القابلة بجعل تاريخ بجاية مفهوما على غرار كل الموانئ المسلمة في المنطقة في نهاية العصر الوسيط.

مقدمة كتاب :

Bougie port maghrébin, 1067-1510, Rome, École française de Rome, 2006.

- **العناوين الفرعية من صنع التحرير.**